

محاضرات مقياس تاريخ أوروبا الحديث للسنة أولى ماستر تخصص تاريخ الجزائر الحديث أ. عبد الباسط قلفاط

المحاضرة الأولى: الحروب الإيطالية

يرى الكثير من المؤرخين أن محور التاريخ الأوروبي الحديث هو الحروب والثورات، لأن الحضارة الأوروبية هي التي امتدت الى ما وراء البحار، إضافة إلى أن أهم أحداث العالم كانت أوروبا بامتياز أو منطلقها من أوروبا (حركة النهضة- الكشوفات الجغرافية - الحركة الاستعمارية - الثورة الفرنسية- ثورة الولايات المتحدة الأمريكية- الثورة الاقتصادية وغيرها).

مفهومها: تعتبر الحروب الإيطالية هي أول صراع دولي في الفترة الحديثة، ساهم في ميلاد كيانات سياسية لها شرعيتها الدولية، وهذا الصراع وتلك الكيانات كانت مقدمة لفرض القانون الأوروبي العام ثم القانون الدولي فيما بعد، بعدما كان هناك كيان واحد - الإمبراطورية الرومانية المقدسة - تتبعه مجموعة من الممالك والأمراء.

أسباب وظروف الحرب:

- وضع إيطاليا المتردي الذي شجع الدول الطامعة في تدعيم كياناتها السياسي، لقد كانت إيطاليا مقسمة إلى دويلات ومدن متحاربة فيما بينها ومع البابوية، كما كانت مسرحاً لصراع خارجي تركز بين فرنسا وإسبانيا لامتلاك الجزيرة الإيطالية أو مناطق نفوذ فيها، وسعى كل طرف إلى تحقيق مصالح اقتصادية وسياسية بعيدة المدى، في حين كانت دول أخرى تترقب الوضع مثل إنجلترا وسويسرا، ومجموعة أخرى بدرجة ثالثة تبنت مبدأ توازن القوى.

- ضعف الإمبراطورية الرومانية المقدسة نتيجة صراعاتها مع الدول الأوروبية والدويلات الإيطالية، إضافة إلى تأثير حركتي النهضة والإصلاح الديني وفشلها في مواجهة المد العثماني في شرق أوروبا والبحر المتوسط.

- خروج فرنسا وإسبانيا من حروب بقوة كبيرة، الأولى من حرب 100 عام والثانية بعد ما طردت المسلمين من الأندلس، فاستطاعت الأولى استثمار انتصاراتها باتحادها وقيام حكومة قوية فيها، فكانت من أقوى الدول الأوروبية يومها؛ ولكلا الدولتين حقوقاً في إيطاليا.

- جاءت الحرب كذلك بسبب مطامع فرنسا في إيطاليا، إضافة إلى قبول وتحمس بعض القوى الإيطالية للتدخل الفرنسي مثل فلورنسا والبابوية وأطراف أخرى؛ لقد أبرزت هذه الحروب في النهاية عنصر مهم وهو الحرص على عدم أي اختلال يحدث في ميزان القوى القائم على حساب طرف من الأطراف، داخل إيطاليا أو على مستوى العلاقات الأوروبية وهذا ما سمي بمصلحة الدولة أو اعتبارات الدولة.

مراحل الحرب وخصائصها: مرت الحروب الإيطالية بدورين، حاولت فرنسا في أولهما تحقيق ادعائها في نابولي وميلان، وينتهي الدور الثاني بصلح "كاتو كمبرسيس" الذي تصارعت فيه أكبر أسرتين في أوروبا (الفالوا - الهابسبرج)، وانتهى هذا الدور بتطبيق مبدأ التوازن الدولي.

الدور الأول (1494-1515): لقد جعل كل من لويس 11 وشارل الثامن من جيش فرنسا أقوى الجيوش الأوروبية في مطلع الفترة الحديثة، وطمع الأخير في نهضة إيطاليا وثرواتها، وزادت أطماعه عندما استنجد به أحد المطالبين بعرش ميلان، وقد كانت له صلة قرابة بأسرة أورليان الفرنسية؛ ولما أتم شارل 8 استعداداته بتحييد انكلترا والامبراطورية الرومانية بمنح مالية وتنازلات إقليمية عبر جبال الألب في خريف 1494، ونزل في بيدمونت - شمال شرق إيطاليا- واجتاح فلورنسا وبعد ثلاثة أشهر وصل إلى روما قاصداً نابولي، ولكنه اضطر إلى الانسحاب أمام تهديدات التحالف الذي ظهر ضده (الامبراطورية - البابوية - نابولي - إسبانيا- البندقية - ميلان) وخوفاً من أن ينقطع عليه خط الرجعة؛ أعاد خلفه وابن عمه لويس 12 نفس العملية وخضع له شمال إيطاليا في خريف 1499، وحاول التقاهم مع إسبانيا ولكنه فشل وخرج منهزماً متنازلاً عن كل أطماعه إلا من ميلان.

تجددت الحرب سنة 1509 على اثر "حلف كمبراي" ضد فرنسا التي عبرت جيوشها الى البندقية ثم اصطدمت بالجيوش البابوية التي تزعمت "الحلف المقدس" في 1511/10/05 الذي كان من أبرز أهدافه طرد الفرنسيين من ايطاليا اضافة إلى أهداف أخرى ترتبط بالإصلاح الديني وبتراضية بعض أطراف الحلف، وخرج الفرنسيون فارين الى بلادهم، وتجددت الحرب مرة أخرى سنة 1513، وانتهت بانهزام شارل 12 وتوقيع صلح مع البابا في أوت 1514 وينتهي بذلك الدور الأول وكان من أهم نتائجه: فشل فرنسا في توسعها ثم تعرضها للغزو مما دفعها للتحالف مع الدولة العثمانية وبالمقابل توسع نفوذ وقوة كل من البابوية واسبانيا في ايطاليا وخارجها.

الدور الثاني(1515-1559): يقسمه المؤرخون الى مجموعة من المراحل ويبدأ بتولي فرانسوا الأول العرش، ورغبته في استرجاع هيبة فرنسا والعودة الى ميلان، وتكررت عملية انشاء التحالفات، وتمكنت الجيوش الفرنسية من دخول ميلان وأسر دوقها، ومن أهم نتائج هذه المرحلة اقتسام مناطق النفوذ في ايطاليا بين فرنسا في لمبارديا وايطاليا في نابولي، وتحول السويسريون للتحالف مع فرانسوا الأول وهو التحالف الذي استمر ثلاثة قرون، كما عقد فرانسوا الأول تسويات دينية مع البابا وأخرى سياسية إقليمية مع النمسا.

في المرحلة التالية التي امتدت عشرة أعوام سعى شارل الخامس – إمبراطور الإمبراطورية المقدسة - لربط ممتلكاته وتحديد نفوذ فرنسا بمجموعة من التحالفات، وبدأت الحرب التي انهزم فيها الفرنسيون وأسر ملكهم وأرغم على توقيع معاهدة مدريد(1526/01/14) تنازل فيها عن كل ادعاءاته في شمال ايطاليا وجنوبها، مع تقديم التزامات مذلة، هنا بحث الفرنسيون على تحالف جديد ولو مع الكفرة، واعتبر المؤرخون أن المعاهدة هي محاولة للعودة للنظام القديم واختلال للتوازن الدولي الأوروبي.

ولكن سرعان ما نشب الصراع بين البابا وشارل 5 وتكونت خلاله تحالفات، واستغله فرانسوا الأول لاسترداد لومبارديا والتحالف مع البابا ولكنه انهزم واضطر لعقد "صلح السيدات"(1529/08/03)؛ ورغم احتفاظ فرانسوا 1 ببورجنديا – شمال غرب ايطاليا- فقد اعتبر الصلح انتصارا لشارل 5 الذي حقق أطماعه في ايطاليا وثبت أقدامه غرب الراين وجنوب الألب.

تمتد المرحلة الثالثة إلى سنة 1547 وفيه استغل ملك فرنسا مصاعب الامبراطورية التي أعجزت شارل الخامس، واندلعت الحرب في خريف 1535، ولم تتوقف حتى صلح كارسب(Carspe) في سبتمبر 1544 تنازل فيه شارل 5 عن ادعاءاته في بورجنديا مقابل تنازل الفرنسيين عن بيدمونت وسافوي.

في المرحلة الرابعة تجددت الحرب لأسباب دينية بالدرجة الأولى، وتحالف فيها البابا مع فرنسا، وتدخل الانكليز الى جانب الامبراطور شارل 5 دفعا لأطماع فرنسا في اسكتلندا واندلعت الحرب التي اختلطت بالحروب الدينية، انتصر في بدايتها الامبراطور وحلفائه، وأنقذ صلح "شامبور Champord" في جانفي 1552 فرنسا من احتلال أجنبي وانتصر لمبدأ توازن القوى الدولي، وكان له دورا في السياسة الأوروبية الحديثة؛ ولكن فرنسا استطاعت تحقيق انتصارات والاستيلاء على أقاليم في معارك ربيع 1552 وانتهت بصلح باساو المرتبط بالحروب الدينية والصراع بين أسرتي الفالوا والهابسبورج.

في هذه المرحلة هدأت الأوضاع الدينية في ألمانيا بعد توقيع صلح أجسبرج سنة 1555 الذي اعترف بالمذهب اللوثيري، وفيه تمكن شارل الخامس من التحالف مع إنجلترا والتعايش في الأراضي المنخفضة أين تتواجد إسبانيا وتأمين إنجلترا على مواقعها في شرق فرنسا، وتؤكد هذا التحالف بزواج فليب الثاني ابن شارل الخامس من ملكة إنجلترا تيودور ماري، والمعلم الثالث في هذا الدور هو قرار شارل الخامس بالتنازل عن العرش لابنه في إسبانيا وأخيه فرديناند في تاج الإمبراطورية.

صلح كاتو كمبريسس (Cateau- Cambrsis) ونتائجه: في المرحلة الخامسة تجددت الحرب بعد تحالف البابا بول الرابع مع هنري الثالث ملك فرنسا ضد اسبانيا وحليفها انكلترا، وبعد معارك طويلة وهزائم لكل الأطراف وتعب

الجنود وبعد هزيمة الفرنسيين في جرافلين في صيف 1558 بدأت ترتيبات إنهاء الحرب فكان صلح كاتو كمبريسس (Cateau- Cambrsis) الشهير في بداية أبريل 1559 وأهم بنوده:

- تسويات اقليمية في شمال شرق وجنوب شرق فرنسا في عدد من المدن والأقاليم.
 - مجموعة من المصاهرات والزيجات السياسية لمنع قيام الحرب من جديد.
- لقد تمكن هذا الصلح من توقيف الحروب الايطالية وأنهى صراعا أوروبيا كبيرا وكان أساس العلاقات الأوروبية لقرن قادم وأعطى اسبانيا مساحات شاسعة في أوروبا، ولكن المؤرخين الفرنسيين المعاصرين اعتبروا ملكهم انتصر عسكريا وانهزم سياسيا لتترايد نفوذ اسبانيا على حساب فرنسا في ايطاليا وخارجها، ويرى آخرون أن هذا الانتصار الاسباني حقق لها متاعب وتحديات في القرنين التاليين خاصة في هولندا مع تراجعها في البحر المتوسط.
- ظهر في هذه الحرب "مبدأ التوازن الدولي The Balance of power" وظل محور الصراع الدائر في أوروبا الى منتصف القرن 20، ومن مفاهيم هذا المبدأ أن لا يسمح لدولة ما أن تتجاوز قوتها حدود تهديد الدول الأخرى، وإذا حدث وجب تكوين حلف مضاد لها، وقد أعطت هذه الحرب فرصة للبروتستانت للانتشار ونيل الحقوق اضافة الى دورها في انتقال بعض مظاهر النهضة الايطالية الى فرنسا، لقد كانت هذه الحرب عسكرية سياسية دبلوماسية دينية بحق.

المحاضرة الثانية الحروب الدينية في أوروبا

بعد انتشار البروتستانتية وانتعاش الكاثوليكية بعد حركة الإصلاح المضاد نشبت مجموعة من الحروب والنزاعات المذهبية، وساهمت فيه الأنظمة الحاكمة بالانحياز أو الحياد تبعا لمصالحها ومواقف الملوك منها؛ وأبرز تلك الحروب ما كانت في فرنسا وألمانيا والأراضي المنخفضة، وأحيانا كانت تتطور لتتدخل فيها دول أوروبية أخرى.

1- الحروب الدينية في فرنسا: اتخذ فرانسوا الاول (1547-1515) موقف الحياد من انتشار البروتستانتية لعاملين اثنين: انشغاله بحرب شارل الخامس في ايطاليا وبسبب عداته للبابا، ولكن خوفا على انقسام بلاده بعد انتشار الكفنية بها أصدر مجموعة من قرارات نتج عنها اضطهاد البروتستانت (الهيجونوت)، مما أجبر كالفن نفسه على الفرار الى سويسرا، واستمرت عملية الاضطهاد مع ولده هنري الثاني (1559-1547) فقتل وأحرق المفكرين والفلاحين مما اكسب البروتستانت العطف أكثر.

بعد وفاة هنري الثاني حكمت زوجته الايطالية الاصل كاثرين دي ميديشي باسم اولاده الثلاثة¹، وحاولت لعب عملية التوازن بين جناحي الصراع مع مساعدة الكاثوليك أكثر. كان فرانسوا دي غيز زعيم أقوى عائلة كاثوليكية في فرنسا قاد جل حملات الكاثوليك ضد البروتستانت وكان حليف الملكة ومشاركها في السلطة.

في عصر شارل التاسع اتبعت الملكة سياسة التعايش السلمي بين الطائفتين، فأطلقت سراح البروتستانت وزعيمهم لويس كوندية من المعتقلات، ورغم كونها كاثوليكية متدنية إلا أنها حرصت على إبعاد التاج عن الصراع الطائفي، وأصدرت مجموعة من المراسيم أهمها:

- مرسوم التسامح سنة 1562: الذي سمح للبروتستانت بممارسة شعائرهم في مناطق ومدن محددة مما أغضب خصومهم فتجددت الحرب وارتكبت المجازر التي راح ضحيتها الآلاف، فاستعان البروتستانت بملكة انكلترا والكاثوليك بملك اسبانيا.

- مرسوم أمبواز في مارس 1563: الذي أوقف الحروب الدينية مدة خمس سنوات، وأعطى حقوقا جديدة للبروتستانت منها حرية العبادة في بلدة واحدة من كل إقليم.

¹ - فرانسوا(1560-59) شارل 9(1574-60) وهنري 3(1589-74)

- مرسوم (صلح) سان جرمان: بعد تجدد الحروب وارتكاب مجازر جديدة في حق البروتستانت أصدرت الملكة مرسوما جديدا منحت فيه حقوقا إضافية للبروتستانت.

ولكن مرحلة توازن القوى لم تستمر بعد خوف الملكة من تصاعد قوة البروتستانت، فتعاونت مع خصومهم وارتكبت في حقهم مذبحه "مذبحة بارثلميو" يوم 1572/08/24 راح ضحيتها حوالي 10000 بروتستانت، فتجددت الحروب وانقسم الكاثوليك على أنفسهم، طرف مناصر للحرب وآخر يدعو الى تجاوز الخلافات الطائفية، اضافة الى عامل الصراع على العرش بين هنري 3 وهنري بوربون، هذا الأخير الذي دخل باريس وتوج ملكا سنة 1594 باسم هنري 4، وكان قد أصدر مرسوم ترنت في أبريل 1592 سويت بموجبه الخلافات الطائفية في فرنسا.

ب- حرب الثلاثون سنة في ألمانيا(1618-1648): تدخلت عدد من الدول في هذه الحرب واختلطت فيها العوامل السياسية بالدينية، ولعل أهمها:

صلح أغسطس في 1555 09/25 بين كاثوليك جنوب ألمانيا وبروتستانت شمالها تم بضغط من الإمبراطور فرديناند الأول، الذي سمح بموجبه للأمرء الألمان باختيار اللوثرية أو الكاثوليكية، وحدثت على إثره هجرات كبيرة؛ ولكن رأى الطرفان في هذا الصلح مجرد هدنة، فعمل الكاثوليك على إعادة نشر المسيحية بين البروتستانت عن طريق حركة الإصلاح المضاد ونشاط اليسوعيين، كما سعى البروتستانت الى تثبيت مواقعهم في شمال ألمانيا وجنوب النمسا، فتهيأت الظروف لحرب جديدة.

تطورت الجهود السابقة إلى انشاء تحالفات، فظهر "الاتحاد البروتستانتى" سنة 1608، والعصبة الكاثوليكية في السنة التالية؛ تهيأت الأجواء للحرب فأعلن البروتستانت الثورة ضد فرديناند 2 -حليف اليسوعيين- في ماي 1618 ببوهيميا، وأعلنوا زعيمهم فرديريك 5 ملكا عليهم؛ استعان الإمبراطور فرديناند بالبابا واسبانيا وإمارات أخرى وحقق انتصارات وارتكب مجازر في حق البروتستانت، مما أحدث هجرات كبرى، وانتقم اليسوعيون بعملية كتلكة جديدة.

تدخل ملك الدانمارك البروتستانتى -كرستيان 4- لأغراض دينية وسياسية، خاصة بعدما تلقى وعودا بالدعم المالي والعسكري من انكلترا وهولندا وفرنسا، ولكن جيوشه وإمكاناته كانت محدودة بعد أن تخلت عنه الدول الأوروبية، فتلقى مجموعة من الهزائم خلال العشرينات، وانتهى هذا الصراع بعقد صلح "لوبك" سنة 1629، حيث تنازل كرسطيان 4 عن كل امتيازاته في ألمانيا وتعهد بعدم التدخل فيها مقابل خروج قوات الإمبراطور من الدانمارك؛ ومن نتائج هذه المرحلة اصدار الإمبراطور "المرسوم الاعادة" لكل ممتلكات الكنيسة التي أخذها البروتستانت في صلح "أغسبرج" مما جدد الحرب.

في المرحلة التالية تدخل ملك السويد الشاب "جوستاف أدولف" ضد الكاثوليك الألمان لدوافع سياسية ودينية، منها خطر النفوذ الإمبراطوري النمساوي في شمال ألمانيا والخوف من التنافس الاقتصادي والعسكري في بحر البلطيق، إضافة إلى أطماع إقليمية لجوستاف في شمال ألمانيا؛ زحف جوستاف على ألمانيا في جوان 1830 وردت عليه قوات الإمبراطور بهجوم مضاد ارتكب فيه مجزرة رهيبة (حوالي 20000 قتيل)، وحقق جوستاف انتصارات سنتي 1631 و1632 ولكن سرعان ما انقلب ميزان القوى بعد موت جوستاف، وانسحب بروتستانت ألمانيا من الحرب وعقدوا صلحا منفردا مع الإمبراطور الذي تنازل من خلاله على مرسوم الاعادة.

وخوفا من تصاعد قوة النمسا وتهديد ميزان القوى تدخلت فرنسا - عبر وزير خارجيتها ريشيليو - وعقدت حلفا مع السويد وانكلترا وهولندا ضد النمسا واسبانيا، فدخلت فرنسا عبر الراين والسويد من الشمال، وتوفي الإمبراطور النمساوي وتعبت كل الأطراف في الحرب، ووقعت تمردات في اسبانيا فاقنتع الكل بانهاء الحرب، فتواصلوا وتفاوضوا حتى وقّعوا صلح وستاليا سنة 1648 الذي تقرر من خلاله:

- تمتع أتباع لوثر وكالفن بالحرية الدينية في كامل أنحاء الامبراطورية النمساوية - احتفاظ الطرفين بأملالك الكنيسة منذ سنة 1624 - احترام كامل لشروط صلح أغسبرج - حصول فرنسا والسويد على امتيازات أضعفت من قوة النمسا - اعترف رسميا باستقلال سويسرا وهولندا.

لقد خرجت الامبراطورية النمساوية ضعيفة بخسرانها للكثير من الولايات، كما قسمت ألمانيا إلى حوالي مائة ولاية مع استقلالية الأمراء بولاياتهم، وأكبر نتيجة هي اقتناع طرفي الصراع بالحرية الدينية وبضرورة التعايش.

ج-الحروب الطائفية في الأراضي المنخفضة: الصراع في الأراضي المنخفضة قام على عاملين أساسيين ديني وسياسي، لقد تعصب الكاثوليك في شمال البلاد وقاموا باضطهاد وقمع بروتستانت الجنوب بواسطة محاكم التفتيش، ورد عليهم البروتستانت بتشكيل جمعية مضادة هدفها رفع الظلم والتخلص من الحكم الاسباني.

تميز الصراع في هولندا ببروز البعد القومي وتقارب طرفي الصراع ضد الوجود الاسباني ببلادهم، حيث انظم بعض النبلاء الكاثوليك الى الجمعية البروتستانتية مطالبين بانهاء القمع الطائفي، وطالب الجميع الملكة بانهاء سياسة الإرهاب وعمل محاكم التفتيش الاسبانية؛ وأمام رفض الملكة اندلعت الثورة سنة 1566 وعمت البلاد بقيادة كالفينية، وتخربت خلال أسبوع حوالي 400 كنيسة كاثوليكية، وعاد الانقسام الطائفي حتى هددت الوحدة القومية، وأرسل ملك اسبانيا أحد القادة الديمويين "ألفا" على رأس جيش فارتكب مجازر في حق الآلاف، فهاجر عشرات الآلاف من البلاد، واستغل ملك اسبانيا امكانيات البلاد لصالح بلاده وحروبه بفرض الضرائب، فعم السخط ونشطت المقاومة ضد السفن الاسبانية وتعاون مع وليام أورنج أبرز النبلاء البروتستانت، فقام بمهاجمة الكاثوليك سنة 1572، واستولى على مواقع استراتيجية فكان ذلك بداية ظهور جمهورية هولندا لاحقا، وبالمقابل اشتد الاضطهاد الكاثوليكي الاسباني للبروتستانت في الشمال، وأعلنت عدد من الولايات تضامنها تحت قيادة وليام أورنج سنة 1574، وانتفضت الولايات الكاثوليكية الجنوبية ضد القوات الاسبانية، هنا استغل أورنج الوضع وعقد مع الولايات 17 في الأراضي المنخفضة معاهدة "غنت"، واتفق الجميع على تجاوز الخلافات الطائفية لأجل طرد الاسبان، وأمام تجدد الاضطهاد الاسباني تشتت صفوف أورانج الذي أعلن وحدة الولايات الشمالية السبع باسم "إتحاد أوترخت" سنة 1579 برئاسة وشكلت حكومة دستورية وظهرت الى الوجود دولة هولندا.

بعد اغتيال اورنج خلفه ابنه موريس الذي احتفظ بالولايات الشمالية وهاجر اليه أغلب بروتستانت الجنوب ويصبح الجنوب بلجيكا لاحقا، وبقيت بقايا الكاثوليكية في الشمال للتسامح الديني، واعترف صلح وستاليا باستقلال هولندا التي توجهت في القرن 17 نحو الحركة الاستعمارية عبر "شركة الهند الشرقية الهولندية".

المحاضرة الثالثة

ظهور وتطور الممالك الأوروبية

ظروف وعوامل النشأة: إن تطور الممالك الأوروبية خلال القرنين 16 و17 يعتبر من أبرز مظاهر العصر الحديث، كما عرف هذا العصر بعصر القومية، هذه المؤسسة التي تمتد بذورها الى بداية القرن 16 وتعرف كامل نضجها خلال القرن 19، وتتركز مسيرتها في حركية النمو للسلطة المركزية خاصة على المستويين السياسي والاقتصادي. بدأت أولى مظاهر الدول القومية في تطاول بعض الامارات والدويلات على النظام السياسي لأوروبا في العصور الوسطى والقائم على البابوية والامبراطورية المقدسة، والبعد الفردي لعصر النهضة تجلى في الميدان السياسي بمجموعة من الكيانات السياسية المعبرة عن مجموعة من القوميات المختلفة بالرغم ما باعد بينها من انقسامات وخصومات.

اتجهت الدول والممالك الجديدة نحو الملكية المطلقة تحت شعار "حب الوطن" الذي يبعث فيها ديناميكية ويدفعها لتحقيق وحدتها وطردهم الأجنبي، وقد تجاوز إنسانيو عصر النهضة مع هذه الروح أمثال مكيافيلي في إيطاليا وهو ما جعل نظريات الحكم المطلق أو المستبد تعبر عن هذا العصر وتطلعات المجتمعات الأوروبية؛ لقد كانت الحاجة لحكم قوي - ملك وحكومة- من أهم آليات الصراع بين الأمم ولفرض السيطرة الداخلية وتحقيق الوحدة الاقتصادية، وكانت هذه هي الدوافع الحقيقية لحروب أوروبا في الفترة الحديثة.

وكان من أبرز دوافع ظهور السلطة القوية أيضا ذلك الصراع بين المقاطعات والهيئات الاجتماعية (أكليروس-نبلاء- عامة) والجامعات والنقابات والبيوتات الكبيرة نتيجة تباين الأهداف والمصالح، فكان من تحديات تلك السلطة الاستفادة من تلك الصراعات وتحقيق الاستقرار، إضافة إلى الصراع الطبقي خاصة بين النبلاء والبرجوازية، هذه الأخيرة التي أصبح الملك في فرنسا وبريطانيا في حاجة ماسة إليها لأموالها ولقدراتها في الإدارة ولتحديد سلطات الإقطاع والنبلاء.

أولا تطور الملكية الفرنسية: برز تطور الدولة الحديثة بنظمها السياسية والاقتصادية في فرنسا أكثر من غيرها، فاستطاعت "مؤسسة البلاط" فرض نفسها تدريجيا على إمارات كانت مرتبطة بالتاج بالولاء فقط، وأولها دوقيتي بورغونيا - شرق فرنسا- وبروتانيا - شمال غربها- فاندجت الأولى سنة 1493 والثانية سنة 1532؛ وتضمنت عقود الانضمام الأولى للبلاط الفرنسي الاعتراف بالولاء والتبعية مقابل احترام أعرافها وتقاليدها، وبأن يتولى الإدارة فيها موظفون محليون.

كان كل اندماج يضمن للملك الحكم المطلق، خاصة بعد فشل لقاء ممثلي الطبقات (البرلمان) سنة 1484 فأصبح الملك هو المتصرف الحقيقي في سن الضرائب حتى في الولايات التي لم تندمج بالكامل في التاج، لأن الملك هو الذي يسمح لها وله الحق في مصادرة ذلك الامتياز متى شاء؛ ويقوم حول الملك مجلس صغير من المستشارين يساعده في اتخاذ القرارات ومجلس آخر أوسع يخص الإدارة والقضاء.

أما القضاء فالملك هو رأس القضاء الأعلى واستبدلت المجالس التمثيلية القضائية (ألغيت في عهد فرانسوا 1) بالمجلس القضائي الذي يترأسه قاضي أعلى أو نائبه وعضوية مستشارين ملكيين؛ تداخلت الكثير من اختصاصات القضاء والإدارة في في برلمان باريس ونظرائه في الولايات، الذي يتألف من قضاة يعدون القوانين والقرارات ويتولى المجلس القضاء بين الناس والنظر في الأمور الإدارية، وألغيت سنة 1545 منصب الحاكم العام الذي يترأس الولايات نتيجة تخوف الملك من بعضهم؛ والإدارة المحلية تعتمد على موظفين محليين عددهم يزيد من 10000 موظف رؤسائهم تابعين مباشرة للملك.

وللملك جيش دائم ومحترف وصل عدده سنة 1513 إلى 80000 ومرتبته من خزينة الملك وهو موزع على حوالي 300 مركز وحصن؛ أما أمور المالية فكانت من اختصاص مجلس مستشاري الملك تحت مراقبة مجلس المحاسبة الذي يشرف على واردات ومصاريف الدولة وينوب عنه المفتشون الماليون في الولايات وهكذا تشعبت الإدارة الملكية.

الحكم المطلق والكنيسة: مع تزايد سلطات الملك أصبحت الكنيسة ملزمة بالولاء له أكثر من البابوية في روما، فالملك هو الذي يدعو إلى انعقاد المجامع المسكونية وهو المسؤول على أوقاف وأملاك الكنيسة وله حق التعيين والعزل وحتى بعض الأمور في التسيير ولم يبق للكنيسة إلا الشكل.

الحكم المطلق والإقطاع: أصبحت تدريجيا كل الإمارات هي اقطاعات تابعة للملك الذي يستأنف أحكام قضاتها، وله صلاحيات إنهاء الحروب الإقطاعية وهو ما أنهى السيادة الإقطاعية، وامتدت صلاحياته إلى مراقبة مختلف النشاطات الاجتماعية في المجتمعات المحلية وله أن يرقى موظفيه إلى حكام الولايات، وفي الحياة الاقتصادية فقد أشرفت "مؤسسة البلاط" المؤسسة الجديدة لتحقيق الاكتفاء الذاتي وتوفير المعدن الثمين.

وهكذا فرغم التنافس بين الطبقات الثلاث فقد سعت الملكية لتوطيد الحكم المطلق، ولكن مرت ظروف سياسية ودولية لم تمكن للحكم المطلق دائماً، وتراجع الهياكل القديمة تم بالتدرج خاصة مع تلك التي كانت على الأطراف أو ترتبط بجهات أجنبية مثل الكنيسة، وبعض الموظفين بالولايات يصعب على الملك عزلهم إلا بعد محاكمات وترضيات. لقد أدت الحروب الإيطالية والحروب الدينية إلى تعزيز الحكم المطلق وكذلك التطور العام للأفكار والاقتصاد، ولكن على حساب تطور المرافق التجارية والصناعية؛ وتحدد تطور الحركة البرجوازية بهجرة أصحاب الصناعات والحرف، كما منعت الحروب وضرائب الملك من تطور رأس المال وهو عكس ما حصل في انكلترا التي توجهت نحو الملكية المعتدلة.

لقد وضع نظام الحكم المطلق في فرنسا في النصف الأول من القرن 17 على عهد لويس 13 وبجهود وزيره الكاردينال ريشيليو (1624-1642)، واستمرت هذه الجهود على عهد لويس 14 ووزيره مازاران (1642-1661) ورغم الصعوبات التي واجهته فقد انتهى إلى تثبيت دعائم الملكية سياسياً وعسكرياً، ومن مظاهر قوتها تحديد مجلس طبقات الأمة الذي تصارع فيه النبلاء مع نواب الطبقة الثالثة ثم توقفت اجتماعاته وتفرغ الجو للملكية المطلقة؛ وأبرز أعمال الوزير ريشيليو التنظيم الإداري وتقوية النظام المركزي، وكانت الهيئة الرئيسية للحكومة في عهده هي مجلس الملك (مجلس الدولة) الذي أعيد تنظيمه سنة 1630 وضم لأول مرة وزيرى الحربية والشؤون الخارجية، كما حرص على إحراز تفوق سياسي لفرنسا في أوروبا.

انكلترا في القرنين 16 و17 نموذج الملكيات المعتدلة

تميز تطور الملكية في انكلترا بقوة الرأسمالية والبرجوازية مما أنتج ملكية معتدلة، لقد حققت انكلترا خلال القرن 16 نظام الحكم المطلق الذي بعث في البلاد تطوراً اجتماعياً سريعاً، فرض من خلاله النبلاء عدداً من المبادئ على الملكية وقد حققت هذه المبادئ تدريجياً صورة ذهنية جماعية تبلورت واستقرت في نهاية القرن، وأهم تلك المبادئ: الدستور (القانون الأساسي) فوق الملك – لا يحق للملك فرض ضرائب أو قوانين جديدة دون موافقة البرلمان – ولا يمكن سجن أحد دون مذكرة توقيف بشروطها – ويمكن ملاحقة موظفي ووزراء الملك أمام مجلس العموم².

يتكون البرلمان من: الأكليروس والنبلاء (مجلس اللوردات)، أما مجلس العموم فيتمثل فيه أصحاب الأراضي الأحرار والبرجوازيون، وعدد الموظفين التابعين للملك قليل وجلهم من الأعيان يعينهم الملك في القضاء والإدارة؛ قسمت البلاد إلى مقاطعات (كونتات) يمثل الملك فيها "لورد" وهو أحد نبلاء المقاطعة يساعده مأمور أمن وقضاة صلح، وسلطة الملك عليهم محدودة، أما في المقاطعات الجبلية الشمالية فسلطة اللوردات كاملة.

الحكم المطلق: بعد حرب المائة سنة ضد فرنسا (انتهت سنة 1453) وحرب الوردتين (حرب أهلية وتعتبر آخر الحروب الإقطاعية بين 1455-1485) خضعت البلاد للحكم المطلق بعد تعب المجتمع وقادته من الحرب وانهايار الأسر الكبيرة بسبب الحرب، فظهرت الحاجة لسلطة عليا مركزية قوية، ودان البرلمان للملك ضد فرنسا بدافع وطني حيث نمت الروح القومية ورفضوا البابوية ورجال الكنيسة الفاسدين، يتسم حكم هنري 7 وجزء من خلفه بالهدوء والاستقرار الذي مكن لهذه الأسرة الجديدة بتدعيم نفوذها على حساب النبلاء، إضافة إلى أن جغرافية انكلترا بسيطة ولم تكن تشمل كل أراضي الجزر البريطانية، وعملياً فالأراضي التي تسيطر عليها المملكة هي مقاطعة انكلترا وبلاد الغال؛ لقد اعتمد هنري 7 على جهاز مركزي فعال في مقدمة هذه المؤسسة نجد المجلس الخاص أعضاؤها موظفون سامون مثل المستشار وصاحب الخزينة وحامل الأختام وعدداً من الإقطاعيين وبعض رجال الدين السامين والموظفين الكبار، ودورها القضائي أوضح الأدوار فهو يبت في الشكاوى المرفوعة إليه ويجري

2 - كان للانكليز تاريخ عريق في الحياة البرلمانية فمنذ سنة 1215 وقع الملك الانكليزي على الصك المعروف بالعهد الأعظم (المكاناكارتا) الذي كان البداية لتقييد سلطة الملك وظهور البرلمان.

التحقيقات السرية حول كل مسألة تستدعي ذلك وله أن يصدر أي حكم قضائي إلا الإعدام، فهذا المجلس يشكل مع الملك أعلى سلطة في الدولة.

لقد التحمت الملكية مع الشعب خاصة في عهد هنري 8 (1547-1509) ومن بعده، كما استغلت الملكية الأفكار التقدمية لحركة النهضة، ثم جاءت الثورة الاقتصادية خلال القرن 17 التي نمت فيها الطبقة البرجوازية المتحالفة مع الملك، ومن أبرز نتائج هذه المرحلة تحالف الملك مع الشعب تارة ضد البرلمان وتارة مع الشعب والبرلمان ضد الكنيسة، كما تم تشجيع الإصلاح الديني لدوافع سياسية ودينية وعسكرية.

يعتبر عهد الملكة اليزابيث (1603-1558) عهد ازدهار في انكلتر وبناء تقاليد سياسية وادارية، فأعدت للبرلمان بعض سلطته وتعاونت مع موظفين مقتدرين ورغم تحالفها السياسي والعسكري في عدة مرات مع البابوية فقد دعمت البروتستانتية من خلال قانوني "السيادة العليا" و"المذهب الواحد".

بريطانيا في القرن 17: تميز هذا العهد بعودة ملامح الحكم المطلق من خلال الصراع الطائفي بين الكاثوليك بقيادة آل ستيوارت والبروتستانت بقيادة البرلمان، كما تميز هذا القرن بانتقال العرش الى ملك اسكتلندا جيمس الاول (1603-1625) فتوحد البلدين تحت اسم بريطانيا، دخل جيمس في صراع مع الشعب ومجلس العموم لما حاول تهميشه ثم حله سنة 1614، واستمرت هذه السياسة الصارمة في عهد خلفه شارل الأول مما دفع مجلس العموم تحت ضغط الشعب للاجتماع سنة 1628 وأعدوا وثيقة تعتبر من وثائق الدستور البريطاني سميت بـ **"ملتمس الحقوق The Petition of Rights"** طالبوا فيها بالمبادئ الدستورية السابقة مع عدم إجبار الشعب على إيواء الجنود والبحارة.

ورغم قبول الملك بالوثيقة مرغما فقد استمر الصراع وتم حل البرلمان مرة ثانية فقامت احتجاجات انتهت بانتصار الشعب والبرلمان وتحرير المجلس لوثيقة **"الاحتجاج الاعظم"** سنة 1641 التي فضحت مساوئ الملك الذي فر أمام ثورة الشعب وانتهت تلك المواجهة مع الشعب والبرلمان باعدام الملك سنة 1649، تلت هذه السنة مرحلة فوضى واضطرابات في الحكم وصراع متجدد مع البرلمان مما هيا الجو لثورة جديدة.

الثورة الجليلة: هي الثورة التي قام بها مجلس العموم ومن ورائه الشعب وتم خلع الملك جيمس 2 وتعويضه بـ وليم أورنج وهذا سنة 1688، وسميت هذه الحركة بالثورة الجليلة أو المجيدة "Glorious Revolution"، لأنها جعلت الشعب مصدر السلطات وحددت إختصاصات الملكية أكثر مقابل توسيع صلاحيات مجلس العموم؛ أول أعمال المجلس اصدار "لائحة الحقوق" التي أكدت على الحقوق السابقة، وتعتبر الى الآن من أهم وثائق الدستور البريطاني، وألحقه المجلس بعدة قوانين لتدعيم هذا التوجه خاصة في معالجة القضية الطائفية، كما نص "قانون التسوية" سنة 1701 على عدم جواز اعتلاء العرش من كاثوليك، وفي سنة 1707 صدر "قانون الوحدة" الذي وحد بين انكلترا وبلاد الغال واسكتلندا وايرلندا تحت اسم المملكة المتحدة (بريطانيا).

لقد كان للثورة الجليلة وثورات القرن 17 دورا مهما في تطور الحياة الدستورية ونظام الحكم في بريطانيا فتبلورت مجموعة من الأعراف السياسية والدستورية استمرت إلى اليوم منها: نشوء نظام الحزبين - ظهور نظام مجلس الوزراء ويختار الملك زعيم الحزب صاحب الأغلبية في مجلس العموم وكان قبل الثورة يختار الملك مستشاريه من كبار السياسيين وأصحاب النفوذ؛ وبغياب جيمس 1 سنة 1714 عن جلسات مجلس الوزراء أصبحت أغلبية مجلس العموم هي التي تدير شؤون الدولة، والخطوة الثالثة جاءت قبل منتصف القرن 18 باختيار رئيس لمجلس الوزراء. أصبح بعد الثورة الجليلة كذلك النائب في مجلس العموم يمثل دائرة انتخابية وليس طبقة اجتماعية، وتحددت نوعية وتمثيلية سلطات مجلسي اللوردات والعموم فأصبح الأول يمثل الارستقراطية والثاني يمثل الشعب، كما نمت الروح الفردية التي تعارض امتيازات الطبقات فظهرت المناداة بالمساواة بين الطبقات وبأحقية كل فرد في انتخاب نوابه. ورغم كل هذه الثورات والتشريعات والقوانين فقد بقيت الانتخابات مقصورة على الأشراف والأغنياء

وبقي مجلس العموم يمثل الطبقة الأرستقراطية، ولكن ضغط الطبقة العامة وتطور الطبقة الوسطى تحت حماية القوانين السابقة جعلت من تلك الجهود بداية معتبرة لظهور النظام الديمقراطي وتطوره لاحقاً. إن أبرز من تأثر بالثورة وكتب عنها "جون لوك" الذي عالج النظريات السياسية للثورة ومبادئها وحقوق الفرد الطبيعية، وأن الهدف من وجود الحكومة هو حماية الحقوق والشعب هو مصدر السلطات، وفي المجال الديني أكد لوك على عدم تدخل الدولة في الأمور الدينية، وقد كان لهذه الأفكار بالغ الأثر على رجال الثورتين الفرنسية والأمريكية وصناعة الكثير من دساتير العالم لاحقاً.

مراجع

- موريس كروزيه، تاريخ الحضارات العام، ج 4.
- عبد العظيم م ورمضان، تاريخ أوروبا والعالم الحديث من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة.
- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث.
- فرانكلين باومر، الفكر الأوروبي الحديث، ج 4، ج 5.
- زينب عصمت رشيد، تاريخ أوروبا الحديث، ج 1.
- هربرت فيشر، تاريخ أوروبا الحديث في العصر الحديث.